# الفصل الثاني

# نزول الوحي والدعوة السرية

## المبحث الأول

## نزول الوحي على سيد الخلق أجمعين ﷺ

كان النبي ﷺ قد بلغ الأربعين من عمره وكان يخلو في غار حراء بنفسه، ويتفكر في هذا الكون وخالقه، وكان تعبده في الغار يستغرق ليالي عديدة حتى إذا نفد الزاد عاد إلى بيته فتزود لليال أخرى، وفي نهار يوم الاثنين من شهر رمضان جاءه جبريل بغتة لأول مرة داخل غار حراء، وقد نقل البخاري في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ» قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني قال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «**زملوني! زملوني**» **فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر**: «**لقد خشيت على نفسي**» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم،وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى: فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجي هم؟» قال:

نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي

عندما نتأمل في حديث السيدة عائشة يمكن للباحث أن يستنتج قضايا مهمة تتعلق بسيرة الحبيب المصطفى ﷺ ومن أهمها:

**أولا**: الرؤيا الصالحة: ففي حديث عائشة رضي الله عنها: ( **أن أول ما بدئ به محمد ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة) وتسمى أحيانا بالرؤيا الصادقة**، والمراد بها هنا رؤى جميلة ينشرح لها الصدر وتزكو بها الروح ولعل الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله ﷺ بالوحي بالمنام، أنه لو لم يبتدئه بالرؤيا وأتاه الملك فجأة ولم يسبق له أن رأى ملكا من قبل فقد يصيبه شيء من الفزع، فلا يستطيع أن يتلقى منه شيئا، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه الوحي أولا في المنام ليتدرب عليه ويعتاده والرؤيا الصادقة الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة كما ورد في الحديث الشريف وقد قال العلماء: وكانت مدة الرؤيا الصالحة ستة أشهر، ذكره البيهقي، ولم ينزل عليه شيء من القرآن في النوم بل نزل كله يقظة.

والرؤيا الصالحة من البشرى في الحياة الدنيا فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «**أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له**».

فكان ﷺ قبل نزول جبريل عليه السلام عليه بالوحي في غار حراء يرى الرؤى الجميلة فيصحو منشرح الصدر، متفتح النفس لكل ما في الحياة من جمال، لقد أجمعت الروايات من حديث بدء الوحي أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة الصالحة، يراها في النوم فتجيء في اليقظة كاملة، واضحة كما رآها في النوم، لا يغيب عليه منها شيء كأنما نقشت في قلبه وعقله، وقد شبهت السيدة عائشة رضي الله عنها- وهي من أفصح العرب- ظهور رؤيا رسول الله ﷺ إذا استيقظ بها من كمال وضوحها بظهور ضوء الصبح ينفلق عنه غبش الظلام، وهو تصوير بياني لا تنفلق دنيا العرب في ذرى فصاحتهم عن أبلغ منه.

**ثانيا**: ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه: وقبيل النبوة حبب إلى نفس النبي ﷺ الخلوة، ليتفرغ قلبه وعقله وروحه إلى ما سيلقى إليه من أعلام النبوة، فاتخذ من غار حراء متعبدا، لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق، واستجماعا لقواه الفكرية، ومشاعره الروحية، وإحساساته

النفسية، ومداركه العقلية، تفرغا لمناجاة مبدع الكون وخالق الوجود والغار الذي كان يتردد عليه الحبيب المصطفى ﷺ يبعث على التأمل والتفكر، تنظر إلى منتهى الطرف فلا ترى إلا جبالا كأنها ساجدة متطامنة لعظمة الله، وإلا سماء صافية الأديم، وقد يرى من يكون فيه مكة إذا كان حاد البصر.

كانت هذه الخلوة التي حببت إلى نفس النبي ﷺ لونا من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية إلى جانب تعهده الخاص بالتربية الإلهية والتأديب الرباني في جميع أحواله، وكان تعبده ﷺ قبل النبوة بالتفكر في بديع ملكوت السماوات، والنظر في آياته الكونية الدالة على بديع صنعه وعظيم قدرته، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه.

وقد أخذ بعض أهل السلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذكر والعبادة في مرحلة من مراحل السلوك، لتنوير قلبه وإزالة ظلمته وإخراجه من غفلته وشهوته وهفوته، ومن سنن النبي ﷺ سنة الاعتكاف في رمضان وهي مهمة لكل مسلم سواء كان حاكما أو عالما، أو قائدا، أو تاجرا .. لتنقية الشوائب التي تعلق بالنفوس والقلوب، ونصحح واقعنا على ضوء الكتاب والسنة، ونحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب.

ويمكن لأهل فقه الدعوة أن يعطوا لأنفسهم فترة من الوقت للمراجعة الشاملة والتوبة، والتأمل في واقع الدعوة وما هي عليه من قوة أو ضعف واكتشاف عوامل الخلل، ومعرفة الواقع بتفاصيله، خيره وشره.

**ثالثا**: حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاء الملك فقال: اقرأ، قال: قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]

لقد كانت هذه الآيات الكريمات المباركات أول شيء نزل من القرآن الكريم وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وإن من كرم الله تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون بالكتابة بالبنان وبهذه الآيات كانت بداية نبوة محمد ﷺ لقد كان هذا الحادث ضخما، لقد عبر عنه الشهيد سيد قطب -رحمه الله- في ظلاله فقال: «إنه حادث ضخم ضخم جدا،

ضخم إلى غير حد، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا!

إنه حادث ضخم بحقيقته، وضخم بدلالته، وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعا، وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد -بغير مبالغة- هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل.

ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة؟

حقيقته أن الله جل جلاله، العظيم الجبار القهار المتكبر، مالك الملك كله، قد تكرم -في عليائه- فأراد أن يرحم هذه الخليقة المسماة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون لا يكاد يرى اسمه الأرض، وكرم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثل قدره الذي يريده - سبحانه - بهذه الخليقة .. »

كانت بداية الوحي الإلهي فيها إشادة بالقلم وخطره، والعلم ومنزلته في بناء الشعوب والأمم وفيها إشارة واضحة بأن من أخص خصائص الإنسان العلم والمعرفة.

وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة ومنزلة العلم في الإسلام، فأول كلمة في النبوة تصل إلى رسول الله هي الأمر بالقراءة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وما زال الإسلام يحث على العلم ويأمر به ويرفع درجة أهله ويميزهم على غيرهم قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١] وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

**رابعا**: الشدة التي تعرض لها النبي ﷺ ووصف ظاهرة الوحي: لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النبي ﷺ مرارا حتى أجهده وأتعبه، وبقي رسول الله ﷺ يلقى من الوحي شدة وتعبا وثقلا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. كان في ذلك حكمة عظيمة لعل منها: بيان أهمية هذا الدين وعظمته وشدة الاهتمام به، وبيان للأمة أن دينها الذي تتنعم به ما جاءها إلا بعد شدة وكرب.

إن ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن والقوانين الطبيعية حيث تلقى النبي ﷺ كلام الله (القرآن) بواسطة الملك جبريل (عليه السلام)؛ وبالتالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام أو التأمل الباطني أو

الاستشعار الداخلي، بل إن الوحي يتم من خارج ذات النبي ﷺ، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحى وتبليغه، وأما بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي كما يظهر في أحاديثه وأقواله ﷺ.

إن حقيقة الوحي هي الأساس الذي تترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته وأخلاقه ولذلك اهتم المستشرقون والملاحدة من قبلهم بالطعن والتشكيك في حقيقة الوحي، وحاولوا أن يأولوا ظاهرة الوحي ويحرفوها عن حقيقتها عما جاءنا في صحاح السنة الشريفة، وحدثنا به المؤرخون الثقات، فقائل يقول: إن محمدا ﷺ تعلم القرآن ومبادئ الإسلام من بحيرا الراهب، وبعضهم قال بأن محمدا كان رجلا عصبيا أو مصابا بداء الصرع .والحقيقة تقول: إن محمدا عليه الصلاة والسلام وهو في غار حراء فوجئ بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو يقول له: اقرأ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمرا ذاتيا داخليا مرده إلى حديث النفس المجرد، وإنما هو استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات، وضم الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلا في كل مرة: اقرأ، يعتبر تأكيدا لهذا التلقي الخارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصور، من أن الأمر لا يعدو كونه خيالا داخليا فقط.

ولقد أصيب النبي ﷺ بالرعب والخوف مما سمع ورأى وأسرع إلى بيته يرجف فؤاده وهذا يدل على أن النبي ﷺ لم يكن متشوقا للرسالة التي سيكلف بثقلها وتبليغها للناس

وقد قال تعالى تأكيدا لهذا المعنى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقال تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٥، ١٦].

لقد تساقطت آراء المشككين في حقيقة الوحي أمام الحديث الصحيح الذي حدثتنا به السيدة عائشة رضي الله عنها، وقد استمر الوحي بعد ذلك يحمل الدلالة نفسها على حقيقة الوحي، وأنه ليس كما أراد المشككون.

وقد أجمل الدكتور البوطي هذه الدلالة فيما يلي:

١ - **التمييز الواضح بين القرآن والحديث**، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فورا، وعلى حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه؛ لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة للنبوة به، بل لأن القرآن موحى به إليه بنفس اللفظ والحروف بواسطة جبريل عليه السلام، أما الحديث فمعناه وحي من الله عز وجل، ولكن لفظه وتركيبه من عنده عليه الصلاة والسلام، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عز وجل الذي يتلقاه من جبريل بكلامه هو.

٢ - **كان النبي ﷺ يسأل عن بعض الأمور، فلا يجيب عليها وربما مر على سكوته زمن طويل، حتى تنزل آية من القرآن في شأن سؤاله**، وربما تصرف الرسول في بعض الأمور على وجه معين، فتنزلت آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه، وربما انطوت على عتب أو لوم له.

٣ - **كان رسول الله ﷺ أميا .. وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية**، كقصة يوسف عليه السلام وأم موسى حينما ألقت وليدها في اليم، وقصة فرعون ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه ﷺ أميا: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) [العنكبوت: ٤٨].

٤ - **إن صدق النبي ﷺ أربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك، يستدعي أن يكون ﷺ من قبل ذلك صادقا مع نفسه**، ولذا فلا بد أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أي شك يخايل لعينيه أو فكره وكأن هذه الآية جاءت ردا لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحي (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) [يونس: ٩٤].

ولهذا روي أن النبي ﷺ قال بعد نزول هذه الآية: «لا أشك ولا أسأل».

# أنواع الوحي

**تحدث العلماء عن أنواع الوحي فذكروا منها**

١ – **الرؤيا الصادقة**: وكانت مبدأ وحيه ﷺ وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد جاء في الحديث «رؤيا الأنبياء وحي»، قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

٢ – **الإلهام**: وهو أن ينفث الملك في روعه – أي قلبه من غير أن يراه– كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إن روح القدس نفث في روعي**» أي: إن جبريل عليه السلام نفخ في قلبي: «**أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**».

٣ – **أن يأتيه مثل صلصلة الجرس**، أي مثل صوته في القوة، وهو أشده، كما في حديث عائشة: أن الحارث – رضي الله عنه – سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: «**أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول**».

٤ – **ما أوحاه الله تعالى إليه، بلا وساطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام**، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن وثبوتها لنبينا ﷺ في حديث الإسراء.

٥ – **أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها**، فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه.

٦ – **أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا**. هذا ما قاله ابن القيم عن مراتب الوحي.

لقد كان نزول الوحي على رسول الله ﷺ بداية عهد جديد في حياة الإنسانية بعد ما انقطع، وتاهت البشرية في دياجير الظلام.

وكان وقع نزول الوحي شديدا على رسول الله ﷺ كما هو واضح من النص بالرغم من أنه كان أشجع الناس وأقواهم قلبا، كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة، وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر، ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة وهو يحمل كلام الله تعالى ليستقبله من اصطفاه الله جل وعلا لحمل هذا الكلام وإبلاغه لعامة البشر.

ولقد كان موقفا رهيبا ومسئولية عظمى لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرسالة وتبليغها.

ومما يصور رهبة هذا الموقف ما جاء في هذه الرواية من قول رسول الله ﷺ: «**لقد خشيت على نفسي**» وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث: (فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها قال: «**زملوني زملوني**» فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

ومما يبين شدة نزول الوحي على رسول الله ﷺ ما أخرجه الإمام البخاري ومسلم -رحمهما الله- من حديث عائشة رضي الله عنها: قالت: (**ولقد رأيته -تعني رسول الله ﷺ- ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقا**) وحديث **عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: (كان نبي الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه).**

## أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة

**(فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: "زملوني زملوني"! فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي". فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).**

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدل على قوة قلبها، حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر، واستقبلت الأمر بهدوء وسكينة، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل، وعرضت الأمر عليه.

كان موقف خديجة رضي الله عنها من خبر الوحي يدل على سعة إدراكها، حيث قارنت بين ما سمعت وواقع النبي ﷺ فأدركت أن من جبل على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبدا، فقد وصفته بأنه يصل الرحم، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على استعداده النفسي لبذل الخير والإحسان إلى الناس، فإن أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه وكسبهم بما له عليهم من معروف كان طبيعيا بأن ينجح في كسب غيرهم من الناس.

كانت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها قد سارعت إلى إيمانها الفطري، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه، وإلى يقينها بما يملك محمد ﷺ من رصيد الأخلاق، وفضائل الشمائل، ليس

لأحد من البشر رصيد مثله في حياته الطبيعية التي يعيش بها مع الناس، وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربانية التي شهدت آياتها من حفاوة الله تعالى بمحمد ﷺ في مواقف لم تكن من مواقف النبوة والرسالة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة، ولكنها كانت من مواقف الفضائل الإنسانية السارية في حياة ذوي المكارم، من أصحاب المروءات في خاصة البشر.

كانت موقنة بأن زوجها فيه من خصال الجبلة الكمالية ومحاسن الأخلاق الرصينة، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية، وأكمل النحائز الإنسانية ما يضمن له الفوز ويحقق له النجاح والفلاح فقد استدلت بكلماتها العميقة على الكمال المحمدي فقد استنبطت خديجة رضي الله عنها من اتصاف محمد ﷺ بتلك الصفات على أنه لن يتعرض في حياته للخزي قط؛ لأن الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تكتف خديجة رضي الله عنها بمكارم أخلاق النبي ﷺ دليلا على نبوته بل ذهبت إلى ابن عمها العالم الجليل ورقة بن نوفل -رحمه الله- الذي كان ينتظر ظهور نبي آخر الزمان لما عرفه من علماء أهل الكتاب على دنو زمانه واقتراب مبعثه، وكان لحديث ورقة أثر طيب في تثبيت النبي ﷺ وتقوية قلبه وقد أخبر ﷺ بأن الذي خاطبه هو صاحب السر الأعظم الذي يكون سفيرا بين الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ومن أشعار ورقة التي تدل على انتظاره لمبعث النبي ﷺ قوله:

**لججت وكنت في الذكرى لجوجا ... لهم طالما بعث النشيجا**

**ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا**

**ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا**

**بما خبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا**

**بأن محمدا سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا**

لقد صدق ورقة بن نوفل برسالة النبي ﷺ، وشهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة فقد جاء في رواية أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين**».

## دور ام المؤمنين خديجة رضي الله عنها وارضاها

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدور مهم في حياة النبي ﷺ

**اولا** : لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولما جبلت عليه من الكفاءة في المجالات النفسية التي تقوم على الأخلاق العالية من الرحمة والحلم والحكمة والحزم وغير ذلك من مكارم الأخلاق والرسول ﷺ قد وفقه الله تعالى إلى هذه الزوجة المثالية؛ لأنه قدوة للعالمين وخاصة للدعاة إلى الله، فقيامخديجة بذلك الدور الكبير إعلام من الله تعالى لجميع حملة الدعوة الإسلامية بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال من التأسي برسول الله ﷺ حتى يتحقق لهم بلوغ المقاصد العالية التي يسعون لتحقيقها.

**ثانيا** : إن السيدة خديجة رضي الله عنها مثال حسن وقدوة رفيعة لزوجات الدعاة، فالداعية إلى الله ليس كباقي الرجال الذين هم بعيدون عن أعباء الدعوة، ومن الصعب أن يكون مثلهم في كل شيء، إنه صاحب هم ورسالة، هم على ضياع أمته، وانتشار الفساد، وزيادة شوكة أهله، وهم لما يصيب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من مؤامرات وظلم وجوع، وإذلال، وما يصيب الدعاة منهم من تشريد وتضييق وتنكيل، وبعد ذلك هو صاحب رسالة واجب عليه تبليغها للآخرين، وهذا الواجب يتطلب وقتا طويلا يأخذ عليه أوقات نومه وراحته، وأوقات زوجته وأبنائه، ويتطلب تضحية بالمال والوقت والدنيا بأسرها ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته، وإن أوتيت الزوجة من الأخلاق والتقوى والجمال والحسب ما أوتيت، إنه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدعوة وأهميته، وتدرك تماما ما يقوم به الزوج وما يتحمله من أعباء، وما يعانيه من مشاق فتقف إلى جانبه تيسر له مهمته وتعينه عليها، لا أن تقف عائقا وشوكة في طريقه.

**ثالثا** :إن المرأة الصالحة لها أثر في نجاح الدعوة، وقد اتضح ذلك في موقف خديجة رضي الله عنها وما قامت به من الوقوف بجانب النبي ﷺ وهو يواجه الوحي لأول مرة، ولا شك أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة لها دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخاصة الأمور التي يعامل بها الناس، وإن الدعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمله البشر، فإذا وفق الداعية لزوجة صالحة ذات كفاءة فإن ذلك من أهم نجاحه مع الآخرين وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**».

## وفاء النبي ﷺ للسيدة خديجة رضي الله عنها

كان رسول الله ﷺ مثالا عاليا للوفاء ورد الجميل لأهله، فقد كان في غاية الوفاء مع زوجته المخلصة في حياتها وبعد مماتها، وقد بشرها ﷺ ببيت في الجنة في حياتها، وأبلغها سلام الله جل وعلا وسلام جبريل عليه السلام، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: «**يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام –أو طعام أو شراب– فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب**».

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النبي ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها: (**ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: «إنها كانت وكانت وكان لي منها الولد»**.

وأظهر ﷺ البشاشة والسرور لأخت خديجة لما استأذنت عليه لتذكره خديجة فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك، فقال: «اللهم هالة بنت خويلد» فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرا منها، وأظهر ﷺ الحفاوة بامرأة كانت تأتيهم زمن خديجة وبين أن حفظ العهد من الإيمان.

## سنة تكذيب المرسلين

(**يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ «أو مخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا**) فقد بين الحديث سنة من سنن الأمم مع من يدعوهم إلى الله عز وجل وهي التكذيب والإخراج كما قال تعالى عن قوم لوط: { **وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** } [الأعراف: ٨٢]، وكما قال قوم شعيب: ﴿ **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** ﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

## قوله "وفتر الوحي"

تحدث علماء السيرة قديما وحديثا عن فترة الوحي، فقال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخيره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود.

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث- أي بحديث النبي ﷺ- عن فترة الوحي: «**بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١ - ٥] فحمى الوحي وتتابع**».

وقال صفي الرحمن المباركفوري: أما مدة فترة الوحي فاختلفوا فيها على عدة أقوال والصحيح أنها كانت أياما وقد روى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد ذلك، وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنين أو سنتين ونصف فليس بصحيح وأما ما جاء بلاغا أنه ﷺ حزن حزنا جعله يغدو ليتردى من شواهق الجبال، وأن جبريل عليه السلام كان يظهر له في كل مرة ويبشره بأنه رسول الله فمرسل ضعيف، كما أنه يتنافى مع عصمة النبي ﷺ.

## المبحث الثاني
## الدعوة السرية

### أولا: الأمر الرباني بتبليغ الرسالة:

عرف النبي ﷺ معرفة اليقين أنه أصبح نبيا لله الرحيم الكريم، وجاء جبريل عليه السلام للمرة الثانية، وأنزل الله على نبيه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١ - ٥].

كانت هذه الآيات المتتابعة إيذانا للرسول ﷺ بأن الماضي قد انتهى بمنامه وهدوئه، وأنه أمامه عمل عظيم يستدعي اليقظة والتشمير، والإنذار والإعذار، فليحمل الرسالة، وليوجه الناس، وليأنس بالوحي، وليقو على عنائه فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته.

وتعد هذه الآيات أول أمر بتبليغ الدعوة، والقيام بالتبعة، وقد أشارت هذه الآيات إلى أمور هي خلاصة الدعوة المحمدية، والحقائق الإسلامية التي بني عليها الإسلام كله، وهي الوحدانية والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النفوس، ودفع الفساد عن الجماعة، وجلب النفع.

كانت هذه الآيات تهييجا لعزيمة رسول الله ﷺ لينهض بعبء ما كلفه من تبليغ رسالات ربه، فيمضي قدما بدعوته، لا يبالي العقبات والحواجز، كان هذا النداء المتلطف ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إيذانا بشحذ العزائم وتوديعا لأوقات النوم والراحة وجاء عقب هذا النداء الأمر الجازم بالنهوض (قم) في عزيمة ناهضة وقوة حازمة، تتحرك في اتجاه تحقيق واجب التبليغ، وفي مجيء الأمر بالإنذار منفردا عن التبشير في أول خطاب وجه إلى النبي ﷺ بعد فترة الوحي إيذان بأن رسالته تعتمد على الكفاح الصبور، والجهاد المرير، ثم زادت الآيات في تقوية عزيمة النبي ﷺ، وشد أزره وحضه على المضي قدما إلى غاية ما أمر به، غير عابئ بما يعترض طريقه من عقبات مهما يكن شأنها فقيل له: (وربك فكبر) أي: لا تعظم شيئا من أمور الخلق ولا يتعاظمك منهم شيء فلا تتهيب فعلا من أفعالهم، ولا تخشى أحدا منهم، ولا تعظم إلا ربك الذي تعهدك وأنت في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، فرباك على موائد فضله، ورعاك بإحسانه وجوده حتى أخرجك للناس نبيا ورسولا، بعد أن أعدك خلقا وخلقا، لتحمل أمانة أعظم رسالاته، (وربك فكبر) فكل تعظيم وتكبير وإجلال حق لله تعالى وحده، لا يشاركه فيه أحد، أو شيء من مخلوقاته.

وفي قوله: (وثيابك فطهر) فكأنه قيل له ﷺ: فأنت على طهرك وتطهرك بفطرتك في كمال إنسانيتك بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق، وبما حباك به من نبوته ليعدك بها ليومك هذا أحوج إلى أن تزداد في تطهرك النفسي، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين، وكمال الرسالة في كمال الخلق الاجتماعي صبرا، وحلما، وعفوا، وإحسانا ودؤوبا على الجد في تبليغ الدعوة إلى الله تعالى ولا يثنيك إيذاء ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء .

وفي قوله: (والرجز فاهجر) فكأنه قيل له ﷺ: ليكن قصدك ونيتك في تركك ما تركت، فطرة وطبعا هجره تكليفا وتعبدا لتكون قدوة أمتك، وعنوان تطهرها بهداية رسالتك.

## بدء الدعوة السرية

بعد نزول آيات المدثر قام رسول الله ﷺ يدعو إلى الله وإلى الإسلام سرا، وكان طبيعيا أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب الناس إليه.

**١ - إسلام السيدة خديجة رضي الله عنها:**

كان أول من آمن بالنبي ﷺ من النساء، بل أول من آمن به على الإطلاق السيدة خديجة رضي الله عنها، فكانت أول من استمع إلى الوحي الإلهي من فم الرسول الكريم ﷺ، وكانت أول من تلا القرآن بعد أن سمعته من صوت الرسول العظيم ﷺ، وكانت كذلك أول من تعلم الصلاة عن رسول الله ﷺ، فبيتها هو أول مكان تلي فيه أول وحي نزل به جبريل على قلب المصطفى الكريم ﷺ بعد غار حراء.

كان أول شيء فرضه الله من الشرائع بعد الإقرار بالتوحيد إقامة الصلاة، وقد جاء في الأخبار حديث تعليم الرسول ﷺ زوجه خديجة الوضوء والصلاة حين افترضت على رسول الله؛ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل عليه السلام والرسول ينظر ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ، ثم قام جبريل عليه السلام فصلى به وصلى النبي ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام فجاء رسول الله خديجة فتوضأ لها يريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل عليه السلام، فتوضأت كما توضأ رسول الله ﷺ ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل عليه السلام.

**٢ - إسلام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -:**

وبعد إيمان السيدة خديجة دخل علي بن أبي طالب في الإسلام، وكان أول من آمن من الصبيان، وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال، وهو قول الطبري وابن إسحاق، وقد أنعم الله عليه بأن جعله يتربى في حجر رسوله ﷺ قبل الإسلام حيث أخذه من عمه أبي طالب وضمه إليه. وكان علي – رضي الله عنه – ثالث من أقام الصلاة بعد رسول الله وبعدخديجة رضي الله عنها.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيا من أبيه، ومن جميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا ليضمهما ذلك البيت الطاهر التقي بالإيمان المفعم بصدق الوفاء وكرم المنبت.

**٣ – إسلام زيد بن حارثة – رضي الله عنه –:**

هو أول من آمن بالدعوة من الموالي حب النبي ﷺ ومولاه، ومتبناه: زيد بن حارثة الكلبي الذي آثر رسول الله على والده وأهله، عندما جاءوا إلى مكة لشرائه من رسول الله ﷺ فترك رسول الله الأمر لحارثة فقال زيد لرسول الله: ما أنا بالذي أختار عليك أحدا، وأنت مني بمنزلة الأب والعم، فقال له والده وعمه: ويحك تختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: نعم، وإني رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحدا أبدا.

**٤ – إسلام بنات النبي ﷺ:**

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النبي ﷺ، كل من زينب، وأم كلثوم، وفاطمة ورقية، فقد تأثرن قبل البعثة بوالدهن ﷺ في الاستقامة وحسن السيرة، والتنزه عما كان يفعله أهل الجاهلية، من عبادة الأصنام والوقوع في الآثام، وقد تأثرن بوالدتهن، فأسرعن إلى الإيمان، وبذلك أصبح بيت النبي ﷺ أول أسرة مؤمنة بالله تعالى منقادة لشرعه في الإسلام، ولهذا البيت النبوي الأول مكانة عظمى في تاريخ الدعوة الإسلامية لما حباه الله به من مزايا وخصه بشرف الأسبقية في الإيمان وتلاوة القرآن وإقام الصلاة فهو:

- ✓ **أول مكان تلي فيه وحي السماء بعد غار حراء.**
- ✓ **وهو أول بيت ضم المؤمنة الأولى سابقة السبق إلى الإسلام.**
- ✓ **وهو أول بيت أقيمت فيه الصلاة.**
- ✓ **وهو أول بيت اجتمع فيه المؤمنون الثلاثة السابقون إلى الإسلام، خديجة وعلي وزيد بن حارثة.**

أول بيت تعهد بالنصرة، ولم يتقاعس فيه فرد من أفراده كبارا أو صغارا عن مساندة الدعوة.

يحق لهذا البيت أن يكون قدوة، ويحق لربته أن تكون مثالا ونموذجا حيا لبيوت المسلمين ولنسائهم ورجال المؤمنين كافة، فالزوجة فيه طاهرة مؤمنة مخلصة وزيرة الصدق والأمان، وابن العم المحضون والمكفول مستجيب ومعضد ورفيق، والمتبنى مؤمن صادق مساعد ومعين، والبنات مصدقات مستجيبات مؤمنات ممتثلات.

وهكذا كان للبيت النبوي مكانته الأولى والواجب يدعو إلى أن يكون قدوتنا والأنموذج الذي نسير على هديه في المعاشرة ومثالية السلوك بالصدق والتصديق، في الاستجابة والعمل لكل من آمن بالله ربا وبمحمد نبيا ورسولا.

إن الحقيقة البارزة في المنهج الرباني تشير إلى أهمية بناء الفرد الصالح والأسرة الصالحة، كأول حلقة من حلقات الإصلاح، والبناء، ثم المجتمع الصالح، ولقد تجلت عناية الإسلام بالفرد المسلم وتكوينه ووجوب أن يسبق أي عمل آخر، فالفرد المسلم هو حجر الزاوية في أي بناء اجتماعي ولما كانت الأسرة التي تستقبل الفرد منذ ولادته وتستمر معه مدة طويلة من حياته، بل هي التي تحيط به طوال حياته، فهي المحضن المتقدم الذي تتحدد به معالم الشخصية وخصائصها وصفاتها، كما أنها الوسيط بين الفرد والمجتمع، فإذا كان هذا الوسط سليما قويا أمد طرفيه -الفرد والمجتمع- بالسلامة والقوة.

ولهذا اهتم الإسلام بالأسرة واتجه إليها يضع لها الأسس التي تكفل قيامها ونموها نموا سليما، ويوجهها الوجهة الربانية لتكون حلقة قوية في بناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية التي تسعى لصناعة الحضارة الربانية في دنيا الناس.

**٥ - إسلام أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -:**

كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال الأحرار، والأشراف، فهو من أخص أصحاب رسول الله ﷺ قبل البعثة وفيه قال رسول الله ﷺ: «**ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة، وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما عكم حين دعوته ولا تردد فيه**» فأبو بكر صاحب رسول الله ﷺ وهو حسنة من حسناته عليه الصلاة والسلام لم يكن إسلامه إسلام رجل، بل كان إسلامه إسلام أمة، فهو في قريش كما ذكر ابن إسحاق في موقع العين منها:

- كان رجلا مألفا لقومه محببا سهلا.

- وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر.
- وكان رجلا تاجرا.
- ذا خلق ومعروف.
- وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته.

ولذلك عندما تحرك في دعوته للإسلام استجاب له صفوة من خيرة الخلق وهم:

- عثمان بن عفان – رضي الله عنه – في الرابعة والثلاثين من عمره.
- *عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – في الثلاثين من عمره.
- سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – وكان في السابعة عشرة من عمره.
- والزبير بن العوام – رضي الله عنه – وكان في الثانية عشرة من عمره.
- وطلحة بن عبيد الله – رضي الله عنه – وكان في الثالثة عشرة من عمره.

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أول ثمرة من ثمار الصديق أبي بكر – رضي الله عنه – دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فرادى، فأسلموا بين يديه، فكانوا الدعامات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ، وبهم أعزه الله وأيده وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجا، رجالا ونساء، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، ونلاحظ أن أصحاب الجاه لهم أثر كبير في كسب أنصار للدعوة، ولهذا كان أثر أبي بكر – رضي الله عنه – في الإسلام أكثر من غيره.

بعد أن كانت صحبة الصديق لرسول الله، مبنية على مجرد الاستئناس النفسي والخلقي صارت الأنسة بالإيمان بالله وحده، وبالمؤازرة في الشدائد، واتخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام من مكانة أبي بكر، وأنس الناس به ومكانته عندهم قوة لدعوة الحق، فوق ما كان له عليه الصلاة والسلام من قوة نفس، ومكانة عند الله وعند الناس.

ومضت الدعوة سرية وفردية على الاصطفاء والاختيار للعناصر التي تصلح أن تتكون منها الجماعة المؤمنة التي ستسعى لإقامة دولة الإسلام ودعوة الخلق إلى دين رب العباد والتي ستقيم حضارة ربانية ليس لها مثيل.

**الدفعة الثانية:**

جاء دور الدفعة الثانية، بعد إسلام الدفعة الأولى، فأول من أسلم من هذه الدفعة: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرة ابن عمة رسول الله ﷺ (برة بنت عبد المطلب) وأخوه من الرضاع، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقدامة وعبد الله ابنا مظعون، وفاطمة بنت الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب، وزوجة سعيد بن زيد، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وخباب بن الأرت حليف بني زهرة.

**الدفعة الثالثة:**

أسلم عمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود بن الحارث بن شمخ بن مخزوم .. بن هذيل ومسعود بن القاري، وهو مسعود بن ربيعة، بن عمرو، بن سعيد بن عبد العزى، بن حمالة بن القارة.

وأسلم سليط بن عمرو، وأخوه حاطب بن عمرو، وعياش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلامة، وخنيس بن حذافة السهمي، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب وعبد الله بن جحش وأخوه أحمد، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه حطاب بن الحارث وامرأته فكيهة بنت يسار وأخوهما معمر بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب ابن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنحام بن عبد الله بن أسيد، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وفهيرة وأمه، وكان عبدا للطفيل بن الحارث بن سخبرة، فاشتراه الصديق وأعتقه، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وامرأته أمينة بنت خلف، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف، وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل، وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم بن يقظة، وقال ابن هشام: عنسي من مذحج. وصهيب بن سنان هو (سابق الروم).

ومن السابقين إلى الإسلام: أبو ذر الغفاري، وأخوه أنيس، وأمه.

ومن أوائل السابقين: بلال بن رباح الحبشي.

وهؤلاء السابقون من جميع بطون قريش عدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرا.

وقال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام في مكة، وتحدث به.

ويتضح من عرض الأسماء السابقة، أن السابقين الأولين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم، ولم يكونوا كما يقول بعض الباحثين في السيرة: إنهم من حثالة الناس، أو من الأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو ما شابه ذلك- وجانب الصواب بعض كتاب السيرة لدى حديثهم عن السابقين الأولين إلى الإسلام، عندما وصفوهم بأن معظمهم كان خليطا من الفقراء والضعفاء والأرقاء فما الحكمة في ذلك؟).

وبقولهم: كان رصيد هذه الدعوة بعد سنوات ثلاث من بدايتها أربعين رجلا وامرأة عامتهم من الفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء، وفي مقدمتهم أخلاط من مختلف الأعاجم: صهيب الرومي وبلال الحبشي)

إن البحث الدقيق يثبت أن مجموع من أشير إليهم بالفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر، ونسبة هذا العدد من العدد الكلي من الداخلين في الإسلام لا يقال «أكثرهم» ولا «معظمهم» ولا «عامتهم».

إن الذين أسلموا يومئذ لم يكن يدفعهم دافع دنيوي، وإنما هو إيمانهم بالحق الذي شرح الله صدورهم له ونصرة نبيه ﷺ يشترك في ذلك الشريف والرقيق، والغني والفقير ويتساوى في هذا أبو بكر وبلال وعثمان وصهيب، رضي الله عنهم.

ويقول الأستاذ صالح الشامي: نحن لا نريد أن ننفي وجود الضعفاء والأرقاء ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبية - لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة - ولو كانوا كذلك لكانت دعوة طبقية يقوم فيها الضعفاء والأرقاء ضد الأقوياء وأصحاب السلطة والنفوذ، ككل الحركات التي تقاد من خلال البطون، إن هذا لم يدر بخلد أي من المسلمين وهو يعلن إسلامه، إنهم يدخلون في هذا الدين على اعتبارهم إخوة في ظل هذه العقيدة، عبادا لله، وإنه لمن القوة لهذه الدعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذات من كرام أقوامهم، وقد آثروا في سبيل العقيدة أن يتحملوا أصنافا من الهوان ما سبق لهم أن عانوها أو فكروا بها.

## استمرار النبي ﷺ في الدعوة

استمر النبي ﷺ في دعوته السرية يستقطب عددا من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه، وخاصة الذين يتمكن من ضمهم في سرية تامة بعد إقناعهم بالإسلام، وهؤلاء كانوا نعم العون والسند للرسول ﷺ لتوسيع دائرة الدعوة في نطاق السرية وهذه المرحلة العصيبة من حياة دعوة الرسول ﷺ ظهرت فيها الصعوبة والمشقة في تحرك الرسول ﷺ ومن آمن معه بالدعوة، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنوا من شره، ويثقون به، وهذا يعني أن الدعوة خطواتها بطيئة وحذرة كما تقتضي صعوبة المواظبة على تلقي مطالب الدعوة من مصدرها، وصعوبة تنفيذها، إذا كان الداخل في هذا الدين ملزما منذ البداية بالصلاة ودراسة ما تيسر من القرآن -مثلا- ولم يكن يستطيع أن يصلي بين ظهراني قومه، ولا أن يقرأ القرآن، فكان المسلمون يتخفون في الشعاب والأودية إذا أرادوا الصلاة.

## دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقر القيادة):

تذكر كتب السيرة أن اتخاذ دار الأرقم مقرا لقيادة الرسول ﷺ كان بعد المواجهة الأولى التي برز فيها سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه -. قال ابن إسحاق: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحي بعير فشجه، فكان أول دم أهريق في الإسلام».

أصبحت دار الأرقم السرية مركزا جديدا للدعوة يتجمع فيه المسلمون، ويتلقون عن رسول الله ﷺ كل جديد من الوحي، ويستمعون له -عليه الصلاة والسلام- وهو يذكرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كل ما في نفوسهم وواقعهم فيربيهم عليه الصلاة والسلام على عينه. كما تربى هو على عين الله عز وجل، وأصبح هذا الجمع هو قرة عين النبي ﷺ.

## الأسباب في اختيار دار الأرقم

**كان اختيار دار الأرقم لعدة أسباب منها:**

١ – أن الأرقم لم يكن معروفا بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد ﷺ وأصحابه بداره.

٢ – أن الأرقم بن الأرقم – رضي الله عنه – من بني مخزوم وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم. فلو كان الأرقم معروفا بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره؛ لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو.

٣ – أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى عند إسلامه، فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن مركز التجمع الإسلامي فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد ﷺ بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام.

فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكر – رضي الله عنه – أو غيره، ومن أجل هذا نجد أن اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نسمع أبدا أن قريشا داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت مكان اللقاء.

## من صفات الرعيل الأول

كانت الفترة الأولى من عمر الدعوة تعتمد على السرية والفردية وكان التخطيط النبوي دقيقا ومنظما، وكان تخطيطا سياسيا محكما، فما كان اختيار رسول الله ﷺ لدار الأرقم لمجرد اجتماع المسلمين فيها لسماع نصائح ومواعظ وإرشادات، وإنما كانت مركزا للقيادة، ومدرسة للتعليم والتربية والإعداد والتأهيل للدعوة والقيادة، بالتربية الفردية العميقة الهادئة، وتعهد بعض العناصر والتركيز عليها تركيزا خاصا، لتأهيلها لأعباء الدعوة والقيادة، فكان الرسول المربي قد حدد لكل فرد من هؤلاء عمله بدقة وتنظيم حكيم، اشترك في ذلك الكل، الكل يعرف دوره المنوط به، والكل يدرك طبيعة الدعوة والمرحلة التي تمر بها، والكل ملتزم جانب الحيطة والحذر والسرية والانضباط التام.

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكية يتم بكل هدوء وتدرج وسرية وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى عز وجل المتمثل في قوله تعالى: ﴿ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

فالآية الكريمة تأمر النبي ﷺ بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم خاصة إن كانت خاطئة، وأن يصبر على ترددهم في قبول التوجيهات، وأن يجتهد في

تصبيرهم على فتنة أعداء الدعوة، وأن يوضح لهم طبيعة طريق الدعوة، وأنها شاقة، وأن لا يغرر به مغرر ليبعده عنهم، وأن لا يسمع فيهم منتقصا، ولا يطيع فيهم متكبرا أغفل الله قلبه عن حقيقة الأمور وجوهرها.

إن الآيات الكريمة السابقة من سورة الكهف تصف لنا بعض صفات الجماعة المسلمة الأولى والتي من أهمها:

أ- الصبر في قوله تعالى: (واصبر نفسك): إن كلمة الصبر تتردد في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي ﷺ ويوصي الناس بها بعضهم بعضا، وتبلغ أهميتها أن تصير صفة من أربع للفئة الناجية من الخسران. قال تعالى: (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) [العصر] فحكم المولى عز وجل على جميع الناس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

١ - الإيمان بالله.

٢ - العمل الصالح.

٣ - التواصي بالحق.

٤ - التواصي بالصبر.

لأن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وأكمل غيره بالنصح والإرشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، «والتواصي بالصبر كذلك ضرورة؛ فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولابد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم وبعد النهاية».

ب- كثرة الدعاء والإلحاح على الله: وهذا يظهر في قوله تعالى: (يدعون ربهم بالغداة والعشي) فالدعاء باب عظيم، فإذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات فلا بد من تربية الأفراد الذين يعدون لحمل الرسالة وأداء الأمانة على حسن الصلة بالله وكثرة الدعاء؛ لأن ذلك من أعظم وأقوى عوامل النصر.

ج- الإخلاص: ويظهر في قوله تعالى: (يريدون وجهه) ولا بد عند إعداد الأفراد إعدادا ربانيا أن يتربى المسلم على أن تكون أقواله، وأعماله، وجهاده كله لوجه الله وابتغاء مرضاته وحسن مثوبته من غير نظر إلى مغنم، أو جاه، أو لقب، أو تقدم، أو تأخر، وحتى يصبح جنديا من أجل العقيدة والمنهج الرباني ولسان حاله قوله تعالى: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين - لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول ... المسلمين) [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]

إن الإخلاص ركن من أركن قبول العمل ومعلوم أن العمل عند الله لا يقبل إلا بالإخلاص وتصحيح النية وبموافقة السنة والشرع.

د- الثبات: ويظهر في قوله تعالى: (ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) [الكهف:٢٨].

وهذا الثبات المذكور فرع عن ثبات أعم ينبغي أن يتسم به الداعية الرباني، قال تعالى: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) [الأحزاب: ٢٣].

ففي الآيات الكريمة ثلاث صفات، إيمان ورجولة، وصدق. وهذه العناصر مهمة للثبات على المنهج الحق؛ لأن الإيمان يبعث على التمسك بالقيم الرفيعة والتشبث بها، ويبعث على التضحية بالنفس ليبقى المبدأ الرفيع، والرجولة محركة للنفس نحو هذا الهدف غير مهتمة بالصغائر والصغار، وإنما دائما دافعة نحو الهدف الأسمى، والمبدأ الرفيع، والصدق يحول دون التحول أو التغيير أو التبديل، ومن ثم يورث هذا كله الثبات الذي لا يتلون معه الإنسان وإن رأى شعاع السيف على رقبته، أو رأى حبل المشنقة ينتظره، أو رأى الدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها.الثبات الذي يعين على تحقيق الأهداف السامية والغايات الجميلة والقيم الرفيعة.

هذه من أهم الصفات التي اتصفت بها الجماعة المؤمنة الأولى.

## انتشار الدعوة في بطون قريش وعالميتها

كان انتشار الإسلام في المرحلة السرية في سائر فروع قريش بصورة متوازنة دون أن يكون ثقل كبير لأي قبيلة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك. وهي إذا أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي والعصبية لحماية الدعوة الجديدة ونشرها، فإنها في الوقت نفسه لم تؤلب عليها العشائر الأخرى بحجة أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت إليها وتعلي من قدرها على

حساب العشائر الأخرى، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية، لقد شق النبي ﷺ طريقه بكل تخطيط ودقة وأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، فاهتم بالتربية العميقة، والتكوين الدقيق، والتعليم الواسع، والاحتياط الأمني، والانسياب الطبيعي في المجتمع، والإعداد الشامل للمرحلة التي بعد السرية، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن الدعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوة سرية يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لإقامة الحجة على العالمين، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور الإسلام والتوحيد، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدعوة وميدانها منذ خطواتها الأولى، حيث إن القرآن المكي بين شمول الدعوة وعالميتها: قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [ص: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢]

إن الدعوة جاءت لتخاطب البشر، كل البشر، ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى، وهذا يعني أن الدعوة جاءت ومن خصائصها، الإعلان والصدع، والبلاغ، والبيان، والإنذار، وتحمل ما يترتب على هذا من التكذيب، والإيذاء والقتل.

إن استسرار النبي ﷺ في دعوته أول الأمر، إنما هو حال استثنائي لظروف وملابسات خاصة، وهي ظروف بداية الدعوة وضعفها وغربتها، وينبغي أن يفهم هذا ضمن هذا الإطار.

وإن كان الكتمان والاستسرار سياسة مصلحية في كثير من أمور الإسلام في الحرب والسلام، فهو كذلك في موضوع الدعوة، فالاستسرار بها كان لضرورة فرضها الواقع وإلا فالأصل هو بيان دين الله وشرعه وحكمه لكل الناس، أما الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل والخطط والتفصيلات فهو أمر مصلحي خاضع للنظر والاجتهاد البشري، إذ لا يترتب عليه كتمان للدين، ولا سكوت عن حق، ولا يتعلق به بيان، ولا بلاغ،